آثار التّعمير البشري بمنطقة الأوراس
(مسح وادي الطّاقة دراسة حالة)

أ. محمد الشريف حسين(قسم التاريخ والآثار- جامعة سطيف 2)

ملخص:

عمّر الإنسان منطقة الأوراس منذ فترة ما قبل التّاريخ السّحيقة، كما يمكن أن يستنبط من كثرة البقايا الأثرية، الشّاملة لمختلف فترات التّاريخ القديم (فترة ما قبل التّاريخ، فترة فجر التّاريخ، وفترة الحضارات القديمة) ولاسيما منها السّفوح الشّمالية لكتلة جبال الأوراس المنيعة، منطقة «وادي الطّاقة» محلّ هذه الدّراسة، وما ينطوي عليه من آثار في غاية الأهمية، حيث ماتزال جدّ مغمورة في غياب التّنقيبات الأثرية، والدّراسات التّاريخية الخاصّة بها حتّى الآن؛ إذ تهدف الدّراسة إلى إبراز الأهمية العلمية لهذه المنطقة المنسية في انتظار القيام بابحاث اثرية أعمق مستقبلا.

Abstract :

Since the prehistoric period the area of Aures was inhabited by human , that is what has been proved by the archaeological remains of various historic periods Particularly ;The northern side of the Aures montains (TAGA valley) . where there are many different archaeological sites, that belongs to different periods . whom shows human occupation in this area (prehistoric , Protohistory , Antiquity) in the same time we can see the spatial distribution of these archaeological sites . and most of it was unknown because of the archaeological research absence, The purpose of this study is to show scientific importance of this Area.

مقدمة:

تنطوي الجهة الشّمالية الغربية من الأوراس، المعروفة محلّيا باسم «واد الطّاقة» على عدد معتبر من المواقع الأثرية، تعود إلى مختلف الفترات التّاريخية القديم. حيث تمتدّ على الفضاء الجغرافي المحصور بين مرتفعات «بوحمار» غربا، و«واد سبع رقود»، المحاذي لسهل «فيراس» شرقا، ومرتفعات «قلوع التراب»، وجبل «اجلفاون» شمالا إلى قمم جبال «تماقولت»، و«ماجبة»، و«بودريسن» جنوبا (ينظر الخارطة 1).

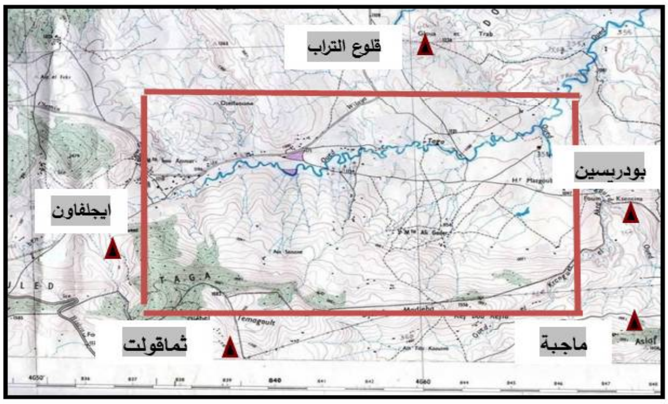

الخارطة(1): منطقة "واد الطاقة" مستخرج عن: الخارطة الطبوغرافية لتازولت، رقم:201،
المقياس: 1/50.000

الخارطة(1): منطقة «واد الطاقة» مستخرج عن: الخارطة الطبوغرافية لتازولت، رقم:201، المقياس: 50.000/1

إذ يتربع الفضاء الجغرافي محلّ هذه الدّراسة على مساحة مستطيلة، منتظمة الأضلاع، بلغ محيطها الإجمالي 480 كلم؛ فيما تعتبر تلك المنطقة من ناحية المورفولوجيا بمثابة امتداد طبيعي لسلسلة الأطلس الكبير بالمغرب الأقصى، ونقطة التقاء سلسلة جبال الأطلس الصّحراوي في الجزائر بجبال الظهرة التونسية.

1 - أصل تسمية «الأوراس»:

تسمية «الأوراس» كمدلول جغرافي للكتلة الجبلية المعروفة لم تذكر في أي وثيقة، أو نصّ تاريخي قديم إلى أواخر القرن السادس ميلادي، حيث وردت بالصيغة الإغريقية «أوروس أراسيون» (OROS AURASION)، فيما يؤكد بعض الباحثين أن هذه الصّيغة للعبارة الإغريقية، ماهي في واقع الأمر سوى ترجمة للعبارة اللاتينية «جبال الأوراس» (MONS AURASIUS)، المعروفة قبل بداية الاحتلال البيزنطي للمنطقة؛ ويُستدلّ على ذلك ببعض الكتابات الأثرية اللاتينية، المؤرّخة في القرنين الثاني، والثالث الميلاديين، المدوّنة على بعض الأنصاب الجنائزية بصيغة الانتساب للأوراس، أي «الأوراسي» (AURASIUS)[1].

2 - منطقة «الأوراس» في التّاريخ القديم:

يكتنف تاريخ الأوراس في فترة ما قبل التّاريخ غموض كبير، وباستثناء الدراسة الضّافية التي أُعدّت في سبعينيات القرن الماضي (القرن العشرين) من طرف الباحثة «روبي» (.ROUBET C) حول موقع كهف «خنقة سي محمد الطاهر» الواقع بالسّفوح الشّمالية لجبال الأوراس المطلّة على حوض تيمقاد، فإنّ باقي الأبحاث والدراسات، التّي شملت المنطقة لم تتعد طور التحريات الأثرية السّريعة. كان من جملتها التّحرّيات التي قام بها الباحث «بالي» (BALLAIS J.L)، حيث مكنته من اكتشاف ثلاثة وأربعين موقعا أثريا جديدا تخصّ فترة ما قبل التاريخ بمفردها[2]، ممّا يؤكّد ثراء المنطقة بالمواقع الأثرية في مقابل عزوف الباحثين المتخصصين مواصلة البحث بها لإثراء الأطلس الأثري الجزائري باكتشافات جديدة في منتهى الأهمية المعرفية.

أمّا في فترة فجر التّاريخ فقد شهد الشرق الجزائري عموما، ومنطقة الأوراس منه خصوصا تعمّيرا إنسانيا أوسع انتشارا، وأكثر كثافة من فترة ما قبل التّاريخ الآنفة الذكر، حيث شاعت آثار العمارة الجنائزية بأشكال مختلفة، كالمصاطب، والتلال الجنائزية، والبازينات، والشّوشات على وجه الخصوص، وهو ما يؤكد مدى تقدم النّظام الاجتماعي، والرّقي الثّقافي، ونموّ الوعي الرّوحي لدى سكان المنطقة الأوائل في تلك المرحلة المبكرة من التّاريخ الإنساني.

ولعلّ من أبرز تلك المواقع الأثرية الهامّة، يمكن الإشارة إلى موقع «أيشوقان» الموجود في شمال منطقة «واد الطاقة» عند مدخل مضيق قسنطينة، حيث ينتصب على مرتفع صخري، يحده من الجهة الشرقية «خنقة الآخرة» ومن الجهة الغربية «واد سبع رقود»، مكان انتشار المعالم الجنائزية المعروفة بالبازينات والشوشات (الصّورة: 1) على نطاق واسع. وإلى الجهة الشرقية الشمالية منها توجد آثار تجمع سكاني قديم يعود الى فترات تاريخية، تسبق فترة تاريخ الاحتلال الروماني للمنطقة؛ حيث عرفت تلك المعالم الجنائزية تنقيبات جزئية، بدأت مع «بايان» (PAYEN)، أعقبتها تنقيبات «فروبينوس» بعد مرور نصف قرن على ذلك[3]. أسفرت جميعها على اكتشاف هيكل عظمي في كلّ قبر من تلك القبور المحفورة حسب «ماسكوراي» (MASQUERAY)[4] . وهو ما يؤكّد تكريس ظاهرة الدّفن الفردي بالمنطقة، بدل الدّفن الجماعي، المنتشرة بكثرة آنذاك عند أقوام بشرية أخرى.

الصّورة (1): معلم جنائزي بموقع «أيـشـوقان»، تصوّير الدّارس.

وإلى الجهة الجنوبية من موقع «أيشوقان» قرب المنحدرات الشمالية لجبل «تماقولت» يوجد موقع «هنشير حمزة» المنطوي بدوره على مجموعة من المعالم الجنائزية المعروفة باسم «التلال الجنائزية». في الجهة الشمالية الغربية منه يوجد موقع «ماجبة»، المتضمن بدوره هو الآخر آثار جنائزية. وإلى الجهة الجنوبية من «واد الطاقة» ينتصب موقع «بومسرف» المشتمل على آثار العمارة الجنائزية من نوع «البازينات»، المختلفة شكلا عن نظيرتها المكتشفة بموقع «هنشير حمزة» المجاور، قوامها حلقات دائرية من الحجارة الشّبه مصقولة، مصفوفة فوق بعضها بعضا بشكل منتظم (الصّورة: 2).

وأمّا في فترة الحضارات القديمة، فيبقى خضوع منطقة الأوراس للسّيطرة الرومانية غير واضح، ففي الوقت الذي يرى فيه «كورتواه» (COURTOIS) أنّ هذه الكتلة الجبلية جزء من إفريقيا المنسية، وقلعة جبلية منعزلة بعيدا عن التأثيرات الرومانية[5]، وقد تداول على حكمها ممالك محلّية جبلية مستقلة، مارست ضغطا متواصلا على أهالي السهول، والمستوطنات الرومانية المتاخمة لتلك السّلاسل الجبلية المنيعة[6]؛ يرى «موريزو» (MORIZOT. P) من جهته أنّ الكتلة الأوراسية لم تعش في معزل عن النّفوذ الروماني وحضارته بدليل وجود تجمع سكاني قديم في «منعة» على حسب زعمه[7]

الصّورة (2): معلم جنائزي بموقع بومسرف، تصوّير الدّارس.

وكيفما كان من الأمر، فإنّ جبال الأوراس قد كانت عامرة وآهلة بقبائل مستقرّة على حدّ ما قدّمه «بيربنت» (BIREBENT. J) من براهين دامغة في هذا النّسق، ولاسيما في مجال الريّ الزّراعي ببعض الأماكن المنقطعة في جبال الأوراس[8]. أضف إلى ذلك الملاحظة التي أبداها الباحث «كامبس» (CAMPS. G) حول الخصوصية الثّقافية لسكان منطقة الأوراس في ذلك الوقت، كما هي مجسّدة بوضوح في صناعة الفخار على وجه الخصوص[9].

بينما نظيف من جهتنا أهمية هذا المكان الواقع على الطّريق القديم الذي كان يربط آنذاك بين مدينتيْ «تاموقادي» (تيمقاد حاليا)، ومدينة «ماسكولا» (خنشلة الحالية)، زيادة عن بقايا آثار العمران الرّيفي كالمزارع، ومنشآت الريّ، ومعاصر الزّيتون، وآثار الاستصلاح الزّراعي من مصاطب، ونحوها.

3 - نتائج المسح الأوّلي لمنطقة «واد الطّاقة»:

أسفرت عملية التّحرّي الميداني للمنطقة على تحديد آثار عمران ريفي خالص، قائم على استصلاح الأراضي الموات، وشقّ ترع الريّ، ومدّ قناطر الماء، وبناء المواجن لريّ الحقول الزّراعية، والبساتين المجاورة، إضافة إلى معاصر الزّيتون، كما هو موضّح بشيء من التّفصيل أدناه.

3 - 1 المزارع أو الضِّيَاع (VILLAE): تمّ تحديد العديد منها بواد الطاقة، منها «هنشير بوزينة»، حيث تربّعت ضياعه على مساحة ناهزت ثلاث هكتارات، وقد اشتملت على

منشآت سكنية ذات طابع ريفي؛ و»هنشير المزقوب» (الصّورة: 3) المتميّز بانتصاب سكناته في الغالب الأعم على ربوة، ومن حولها تنتشر أراضي زراعية متنوعة الاستغلال، خُصّص بعضها لغرس أشجار الزيتون والكروم، وبعضها الآخر لزراعة الحبوب، والخضروات، وإنشاء الحدائق بجوار المنازل؛ أضف إلى ذلك شساعة فضاءات الرّعي والغابات الواقعة بالجوار؛ ناهيك عن قرب تلك الضّياع من مصادر التّزوّد بالماء، حيث تقع دائما بالقرب من الوديان، أو المنابع الطّبيعية[10].

الصّورة (3): هنشير المزقوب، تصوّير الدّارس.

3 - 2 معاصر الزيتون: تنتشر آثار هذه المعاصر بكثرة في «واد الطّاقة»، وحسب الباحثة «هنريات كامبس» (CAMPS. H) فإنّ المناطق الإفريقية التّي أمدتنا اليوم بأكبر عدد من بقايا هذه المعاصرهي نفسها المناطق التي نعتها «سالوست» في الفترة القديمة على أنها مناطق جرداء وجافة، ما يدل في اعتقادها على أن الرومان هم من قام بتوسيع هذه الزراعة إلى تلك المناطق، وأن زراعة الزيتون هي من العوامل المساعد على الاستقرار، واستتباب الأمن، خاصة بالنّسبة للمناطق التي تعمّرها قبائل الرحّل، حيث تهدف هذه الزّراعة إلى وقف تنقّلهم المستمرّ، وكفّ اعتداءاتهم المتتالية على المناطق الحضرية المجاورة، الخاضعة للسّيطرة الرّمانية؛ وبذلك تكون عملية توسيع هذه الزّراعة المربحة تجاريا في فائدة الطّرفين معا، أي إدارة الاحتلال الرّوماني من جهة، وقبائل البدوّ الرّحل من جهة أخرى[11].

3 - 3 المنشآت المائية: هناك آثار «قناة ناقلة للمياه» (AQUEDUC) (الصّورة: 4) بموقع «قلوع التراب»، لا يُستبعد استغلالها في نقل المياه لريّ الأراضي الفلاحية التّابعة للضّياع المجاورة لها؛ أضف إلى ذلك وجود آثار «المواجن» لتجميع مياه السّقيّ، مثلما هو الحال عليه بموقع «هنشير بوميغنيسن» ناهيك عن العدد الكبير من آثار السّواقي في المنطقة.

الصّورة (4):آثار قناة ناقلة المياه بموقع قلوع التراب، تصوّير الدّارس.

إذ يعتبر الريّ في مقدمة العوامل، التي ساهمت في قيام زراعة مزدهرة بأفريقيا خلال فترة الاحتلال الرومانية بالنّظر إلى طبيعة المناخ السّائد في شمال إفريقيا آذاك، حيث كان يميل إلى الجفاف مثلما هو الحال عليه اليوم. وقد تفطّن الرومان مبكرا هذه الحقيقة، فعمدوا بمساهمة أهالي المنطقة إلى تعوّيض نسبة التّساقط الطّبيعي النّاقصة باستحداث منشآت الريّ اليدوي، حيث شرع مهندسوهم في إعادة تهيئة المنشآت التي أقامها الأهالي قبلهم، ثم أضافوا عليها منشآت جديدة على شاكلة المنشآت المذكورة أعلاه.

3 - 4 تهيئة المصاطب الزراعية: نظرا لطبيعة البنية الجبلية، وكثرة الأحراش في تركيبة تضاريس المنطقة، لجأ الإنسان إلى تقنية بناء، وتهيئة المصاطب الزّراعية على مستوى منحدرات جبال المنطقة، سعيا منه لاستغلال أراضيه إلى أبعد الحدود، بعدما أصبح الرّومان يسيطرون على المناطق السّهلية، ولا يسمحون للأهالي بالاستفادة من خيراتها، كما هو الحال عليه بمنحدرات موقع «ايجلفاون» (الصّورة: 5)؛ علما أن هذه التقنية تصلح أكثر لتربة سريعة الجفاف[12]، وأن» عملية التوسع الزراعي كما هو معلوم مرتبطة أساسا بطبيعة الوسط الطبيعي، حيث تقنيات الزراعة في السهول غير تقنيات نظيرتها في المناطق الجبلية.

الصّورة (5):آثار زراعة المدرجات بموقع «ايجلفاون»، تصوّير الدّارس.

خـاتـمة:

ما يمكن استخلاصه أن الدلائل الأثرية التي زودتنا بها منطقة «واد الطاقة»، تؤكّد بوضوح استقرار الإنسان بها منذ فترة ما قبل التاريخ، وأنّ هذه المواقع الأثرية المتنوّعة بحاجة ماسّة إلى بحث علمي واثري عميق ودقيق من قبل المختصين في الميدان لرصد مراحل تطوّر التعمير البشري بالمنطقة، وطريقة تفاعله مع بيئته الطّبيعية والتّاريخية عبر العصور، قبل أن تمتدّ إليها يد الإنسان، أو عوادي الزّمن فتتلفها على اعتبار أنّها آثار غير مصنّفة في قائمة التّراث الوطني والإنساني.

هوامش البحث:

1 -.MORISOT (P), «l'Aurès dans l'antiquité», tome 8, In: Encyclopédie Berbère, Aix en Provence, 1989, p 1103.

2 -ROUBET (C), Roubet C., « Economie pastorale préagricole en Algérie orientale. Le néolithique de tradition capsienne. Exemple : l'Aurès », CNRS., Paris, p .595

3 - PAYEN.(C). « Lettre sur les tombeaux circulaires de la province de Constantine ». Vol. XI, R.N.M.S.A.C.1863 p:161.

4 -MASQUERAY (E), « Voyages dans L'aouras », Bulletin de la société de Géographie d'Alger et d'Afrique du nord, 1876, pp 33 - 45.

5 - COURTOIS (CH), « Les vandales et l'Afrique », Edit. A.M.G , Paris, 1955, pp.116 – 118.

6 -Ibid, p332.

7 -MORIZOT (P), « Archéologie aérienne dans l'Aurès ». Edit. Du CTHS, Paris,1997 p . 43

8 - BIREBENT J., - « Aquae Romanæ, recherches sur les travaux hydrauliques romains dans l'Est algérien ». Service. Des Antiquités, Alger, 1962. p.523.

9 -CAMPS (G), « Aux origines de la berbèrie. Massinissa ou les débuts de l'histoire ». t. VIII, Libyca, Archéologie- épigraphie, 1960,pp.9394-.

10 -El BOUZIDI (S), «La conception de la villa rustica chez Caton, entreprise agricole où simple ferme rurale», In: Gérion, N° 21, Année 2003, pp 183 -184

11 -CAMPS-FABRER (H), « l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine » , imprimerie officielle ,Alger 1953.p.9.

12 -DESPOIS (J.), « La culture en terrasses dans l'Afrique du Nord », N°1; in Économie, Société, Civilisation ; 11éme Année, 1956, pp4950-